عندما التقيت صلاح الدين

روايةٌ عن لقاء لم يكن خيالًا، بل رجوعًا من القدس... نحو غزة.

أنس الرفيبي

الإهـــداء

إلى كل من ظن أن صلاح الدين لن يعود...

وإلى من لم يلتقِ به، لأنهم لم يفتقدوا القدس بما يكفي.

وإلى الفارس الذي ما زال يحرسها من تحت التراب...

صلاح الدين الأيوبي.

أما قبل:

وأتى من بعيدٍ لا يُشبه أهل هذا الزمان..

يمشي كأنّ الأرض لا تتجرأ أن تُحدث تحت قدميه صوتًا،
وكأنّ الجهات الأربع قد تأخرت عن موعدها... فجاء هو ليعيد ترتيبها.

كان في هيئته شيء من التاريخ...
لا، كان التاريخ كلّه.

شعره يختلط بغبارٍ لم يُغسل منذ آخر معركة،
وثوبه يحمل رائحة الخيول والمصاحف والليل الطويل.

ليس طويلًا جدًا،
ولكنك حين تنظر إليه تشعر أنّك تنظر إلى شيء أطول من القامة...
أطول من اليأس... أطول من الزمن.

لم يتكلم،
ولكني شعرت أنّ في صدره خطبةً كاملة...
وفي يده سيفًا لم ينكسر.

قلت له: من أنت؟
فقال بهدوء من يعرف أن الأجوبة لا تُقال، بل تُشعر:

ـ رجلٌ لا يعرف كيف ينحني...
ـ وماذا كنتَ؟
ـ كنتُ ظلًّا لسور المدينة...
ـ وأين كنتَ؟
ـ كنتُ حيث خسرتموني.

سكتَ قليلًا، ثم رفع نظره وقال:
ـ أنا من جاء حين لم يأتِ أحد.
ـ أنا... من لم يفاوض.

فارتجّ قلبي، وسمعتني أهمس دون وعي:
أأنت؟
فاكتفى بأن قال:

قالوا عني: **صلاح الدين.**

أما بعد:

قلت له:
ـ أين كنتَ حين باعوك؟
ـ لا أحد يبيع ما لا يملك...
ثم نظر إليّ طويلًا وقال:
ـ أنا لم أُبع، أنا غبتُ فقط، كالشمس، حين يحجبها الغيم.

كان هادئًا،
كأن الجبال تتكلم من خلاله.
لا يغضب، لا يصرخ،
ولكنك تشعر أنك إن خالفت كلامه... فقد خالفتَ التاريخ.

قلت:
ـ هل كنتَ دائمًا كذلك؟
ـ لا.
ـ فكيف بدأت؟

ابتسم، وقال:
ـ كنتُ صبيًا، أركض بين كتب أبي،
أحفظ أسماء الصحابة أكثر مما أحفظ أسماء أبناء عمومتي،
وأحلم بسيفٍ لا يصدأ، وجيشٍ لا ينهزم.

قلت:
ـ ومتى بدأ الحلم يتحول إلى حرب؟
فقال:
ـ حين دخل النصارى بيت المقدس،
وداسوا موضع الإسراء،
وذبحوا في ساحاته سبعين ألفًا من أهله.

ثم صمت...
وسمعتُ السيف يصرخ في صدره.

قال لي وهو ينظر في البعيد كأنّه ينظر إلى أول أيامه:
ـ لا يُختار المرء متى يُولد،
ولكنه يختار كيف يعيش...
وأنا وُلدتُ في قلعة، ولكن لم تكن الجدران هي التي ربّتني.

سألته:
ـ أفي القصور نشأت؟
قال:
ـ نشأتُ في صدور الرجال، لا في خزائنهم...
وربيتُ على الخشية، لا على الرفاه.

كان أبي رجلاً يُشبه السجود،
يُصلّي أكثر مما يتكلم،
وكان إذا ذُكر الظلم... احمرّ وجهه كأن القيامة قد قامت.

أخذني من تكريت وأنا رضيع،
وغرسني في أرضٍ لا تقبل إلا الجهاد والعدل.

قال:
ـ قرأت القرآن صغيرًا،
لا لأحفظه فقط... بل لأعرف لماذا بكى به عمر،
ولماذا قرأه خالد قبل أن يُمسك سيفه.

ـ وتعلّمت الفقه قبل الفروسية،
لأني كنت أؤمن أن من لا يُقيم حدود الله على نفسه،
لا يحق له أن يقيمها على غيره.

قلت:
ـ ومتى بدأتَ تفكر في الدنيا؟
فقال:
ـ حين علّمني نور الدين أن الملك فتنة،
وأن الانتصار الذي لا تُسبقه دمعة في المحراب... هو هزيمة مؤجلة.

ـ كان يوقظنا لصلاة الفجر قبل أن يوقظنا للحرب.
ـ وكان يردد: "نُريد نصرًا من السماء،
فلا تنسوا أن تطلبوه في السجود."

كان حديثه يقطر نورًا،
كأن كل كلمةٍ يقولها... خرجت من خشوع لا من حنجرة.

قلت في نفسي:
ما أغربه من رجل...
لم يربِّ نفسه بالسيف، بل بالدمعة.
ولم يطلب النصر من ساحة القتال أولاً... بل من محرابٍ في آخر الليل.

قلت له:
ـ ومتى عرفتَ أنك مختلف؟
قال:
ـ حين خفتُ من نفسي.

ـ كنتُ أصلي... ولكني خفتُ أن أُعجب بصوتي.
ـ كنتُ أقاتل... ولكني خفتُ أن يُقال عني فارس.
ـ كنتُ أملك... ولكني ما أحببت أن يملكني ما أملك.

ثم قال بصوتٍ فيه بردُ الليل ودفء السجود:
ـ كنتُ إذا دخلتُ على العلماء جلستُ كما يجلس التلاميذ.
ـ وإذا دخلتُ على الفقراء، مددتُ يدي لا صدقة... بل صحبة.

ـ مرةً مدّ لي رجلٌ كسرة خبزٍ في دمشق،
فأخذتها بيدي لا بفمي،
وقلت له: "من أطعم قلبه الخبز والرضا، لم يجع يومًا."

قلت:
ـ ومن كان أقرب إليك؟
قال:
ـ محرابي.

ـ إذا ضاقت بي الأرض،
أغلقتُ باب غرفتي، وفتحتُ باب السماء،
وقلت: "يا من لا تُحجبه الرايات... عبدك ما عرف الطريق إلا إليك."

ثم نظر إليّ طويلاً،
وقال:
ـ لا شيء يُصلب القلب مثل السجدة.
ـ ولا أحد ينتصر على جيشه... قبل أن ينتصر على نفسه.

تأملتُ في وجهه،
فلم أرَ أثر التاج،
رأيتُ أثر السجود... كما وصف الله في وجوه المصلّين.

قلت في نفسي:
لم أُدرك بعد كيف فتح البلاد،
ولكني فهمت الآن... كيف فتح الله قلبه.

قلت له:
ـ وماذا بعد الورع؟
ـ ماذا بعد المحراب والسجدة الطويلة؟
فقال:
ـ يُختبر صدق السجود... حين يُغلق المصحف، وتُفتح أبواب السياسة.

لم أطلب الملك،
لكنّ الدنيا أُعطيت لي كما أُعطيت ليوسف...
فتنة لا منحة.

كبرتُ،
لا في العمر فقط،
بل في الأسئلة التي لم يعد يجدي فيها البكاء.

قال:
ـ كنتُ وزيرًا في مصر،
غريبًا في أرضٍ تُنازعها الأطماع،
كل يد تريد أن تقضم منها شيئًا.

ـ كنتُ شابًا لم يبلغ الأربعين،
ولكنّ اللحظة كانت أكبر من عمري،
والدماء كانت كثيرة... والوفاء قليل.

قلت:
ـ وهل كنت تريد الحكم؟
قال:
ـ لا،
أنا كنت أريد ألا يُذلّ مسلم،
ألا يُهدر بيتُ مال،
ألا يُعلَن الجهاد على الورق، ويُؤجّل في القلب.

قال:
ـ كنتُ على رأس الدولة،
ولكن قلبي كان في مكان آخر.

ـ كنتُ أكتب أوامري،
ولكني لم أنسَ أني سأقف وحدي... بين يدي الله.

قلت له:
ـ ما أصعب شيء في الحكم؟
فقال:
ـ أن تتوضأ بالعدل،
وتُصلي على منبرٍ لا يُطيعك فيه أحد إلا حين تموت.

ـ وأن تعرف أن الأمانة ليست تاجًا،
بل صخرةٌ... تضعها على صدرك حتى تنام.

قال لي:
ـ مصر لم تكن خفيفة،
كانت ثقيلة كالقرار، غامضة كالمؤامرة.

ـ استدعاني نور الدين،
فذهبت إليه مطيعًا كأنني ذاهب إلى صلاة فجر.

ـ لم يكن لي أن أقول "لا"،
فالرجل الذي علّمني أن السجود لا يُؤخّر،
لا يمكن أن أؤخّر له أمرًا.

قلت له:
ـ هل كنت تعرف أنك ستحكم؟
قال:
ـ لا،
كنت أعرف فقط أنني لا أهرب من الصف،
ولا أُصلي في الصفوف الأخيرة.

ـ فمضيت إلى مصر وزيرًا،
وفي صدري قلق، وفي عينيّ وطن ينتظر مَن لا ينتظر المقابل.

قال:
ـ كانت القاهرة مدينة الذكاء... والخيانة
ـ وكان الحكم فيها كجدار مائل،
كل من يمر تحته، يخشى أن يسقط عليه.

ـ ولما مات الوزير شاور،
وجدت نفسي وحدي في الصدارة،
لا لأني أردتها، بل لأن الكرسي كان فارغًا... والسكين على عنق الأمة.

قلت له:
ـ وأين كان نور الدين؟
قال:
ـ كان في الشام،
رجلًا لم يلد التاريخ مثله في زمانه.

ـ كنت أهابه أكثر مما أهاب نفسي،
وكان إذا كتب لي رسالة،
قرأتُها كأنها قرآن،
ووقّعتُ تحتها كأنني أُوقّع على مصيري.

قال:
ـ كان يحبني،
لكنّه خاف أن أُحبّ الحكم.

ـ وكان صادقًا،
فسأل نفسه: هل بقي فيّ ما يكفي من الزهد... إن اغتنيت؟

ـ ولم يدرِ أني كنتُ أخشى نفسي قبله،
وأن مصر، بكل سلطانها،
لم تُغلق بابي في وجه الفقراء،
ولا جعلتني أنسى أن الجهاد لا يكون من فوق العرش... بل من فوق السجادة.

ثم قال، وهو يطالع وجهي كأنما ينظر إلى سؤالي قبل أن أسأله:
ـ يا هذا...
لم أُفكر يومًا أن أكون سلطانًا،
ولكني كنت أفكر ليلًا طويلًا... كيف لا أكون خائنًا.

قال لي، وصوته خفيض كأنّه يحدّث نفسه:
ـ كنتُ في مصر... حين مات الرجل الذي ربّاني.

قلت:
ـ نور الدين؟
فأومأ برأسه،
لكن شيئًا في وجهه بدا كأنّه لم يصدّق الخبر حتى الآن.

قال:
ـ كانوا يظنون أنني سأفرح،
فالطريق إلى دمشق صار مفتوحًا،
والعرش الذي طالما تهرّبتُ منه... أصبح أقرب من أي وقت.

ـ لكني لم أفرح.
بل صليتُ عليه كما يُصلّى على الآباء،
وكتبتُ له في دفتري:
"لقد مات سيدي، وأبقى الله عبده خادمًا."

قال:
ـ اجتمع الأمراء، وتنازعوا،
كلٌ يرى نفسه الأحق.
وكنتُ أراهم يتنازعون على عظام الرجل قبل أن تبرد.

قلت:
ـ وأنت؟
قال:
ـ كنتُ وحدي... بين دمعتين:
واحدة على رجلٍ كان أمة،
وأخرى على أمةٍ لم يبقَ لها رجل.

قال:
ـ لم أرد أن أدخل الشام،
ولا أن أمدّ يدي إلى شيءٍ لم يُكتب لي.

ـ لكنني رأيت دمشق تُوشك أن تُؤكل،
ورأيتُ أن الوفاء لنور الدين... هو أن أحفظ دولته،
لا أن أقف على قبره وأبكي.

قلت:
ـ وهل بويعت سريعًا؟
قال:
ـ لم أُبَايَع،
بل رُجِمت بالألسن أولًا،
وخُوّنت من أقرب الناس إلى الرجل.

ـ ولكنني صبرت،
لأنني تعلّمت أن القلوب تُفتح كما تُفتح المدن:
بالثبات... لا بالصوت.

ثم نظر إليّ، وقال بهدوء من جرّب الحُكم وأدرك فتنته:

ـ لا تفرح بالمنصب،
فهو ليس تاجًا على الرأس...
بل نارٌ في القلب.

قال لي:
ـ لم يكن هدفي أن أملك الأرض،
بل أن أُبعدها عمن لا يستحقونها.

بدأتُ من دمشق،
لا بالسيف،
بل بالكلمة التي لا تنحني،
والنية التي لا تُساوم.

قال:
ـ خفتُ من نفسي...
أن أكون قد أحببت المُلك بعد طول الخدمة.
فبتُّ ليلةً كاملةً لا أنام،
أُفتّش في قلبي: هل دخل إليه شيء لم يكن فيه من قبل؟

ثم ابتسم، وقال:
ـ فلم أجد إلا الخوف...
والذي يخاف الله، لا يخون الناس.

قلت:
ـ وهل فتحوا لك البلاد طوعًا؟
فقال:
ـ بعضهم... نعم.
وبعضهم... فتحته قلوبهم، ثم تراجعت عقولهم،
فلم أتركهم حتى تلاقت القلوب والعقول من جديد.

قال:
ـ كان الناس قد تعبوا،
فكل أميرٍ يرى نفسه سُلطانًا،
وكل جيشٍ لا يُقاتل إلا على راية نفسه.

ـ فمشيتُ فيهم لا كحاكم،
بل كرجلٍ يُطفئ النار من بيتٍ إلى بيت،
ويقول: لا نريد إلا بيتًا واحدًا... بيت الله.

قلت:
ـ وكم دام ذلك؟
قال:
ـ عشر سنين من الشك...
وسنة من الحب.

ـ والناس لا يُسلّمون رقابهم للسيوف،
بل يسلّمونها للعدل حين يطمئنون.

ثم نظر إليّ كأنه يعلّمني،
وقال:
ـ لا تُوجِّد الجيوش... قبل أن تُوحِّد القبلة.
ـ ولا تطلب أن تفتح مدينة... قبل أن تفتح القلوب.

قال لي:
ـ كانت البلاد تحت يدي،
لكنني كنت أمشي فيها كأني مُستأمن... لا مالك.

كنتُ أزور بيت المال،
لا لأعدّ الذهب،
بل لأتأكد أنه ليس هناك درهمٌ مأخوذٌ بغير وجه حق.

ـ قلتُ للناس:
الملك لا يأكل أكثر من فقير،"
ولا يلبس أكثر من رجلٍ يستحي من الله."

ـ وقلتُ للجنود:
"لن نفتح مدينة... وقلوبنا مغلقة."

قلت له:
ـ أما خشيت أن يتمردوا عليك؟
قال:
ـ العدل يُسكت التمرد،
والناس لا تُحبني كلهم...
لكنهم كانوا يعلمون أني لا أسرق منهم.

ـ كنتُ أقف في الأسواق بلا حاشية،
أسأل عن الأسعار،
فمن غشّ... رُفع،
ومن عدل... بقي حتى لو شتموني ألف مرة.

قال:
ـ جاءني رجلٌ ذات يوم يشكوني،
وقال: إن بيت المال أخذ منه ما لا يستحق.
فنظرتُ في شكواه،
فإذا بالحق له،
فأمرتُ بردّ ماله،

وقلت له: "لو كنتَ مظلومًا وأنا ظالم،
لما انتصر لي ألف جيش."

قلت:
ـ وماذا عن نفسك؟
ـ هل بقيت كما كنت؟
قال:
ـ بقيتُ كما أنا...
فما أكلت من مال الدولة إلا ما يطعمني قوتًا،
وما تركتُ لنفسي بعد موتي إلا كتابًا وسيفًا وثوبًا.

قال:
ـ مرّ أحدهم على قصر دمشق،
فقال: هذا بيت صلاح الدين؟
فردّ عليه حاجبي:
بل هذا بيت المسلمين،
أما هو... فبيته سجادة ونافذة.

ثم التفت إليّ وقال:
ـ يا هذا...
أكبر انتصار بعد المعركة،
ألا تُصبح أسير ما فتحتَه.

فمن يُفتن بالملك... يسقط بعد الفتح،
ومن يظن أن النصر نهاية الطريق... لم يفهم لماذا انتصر.

قلت له:
ـ وماذا فعلتَ بعد أن فتحت البلاد؟
قال:
ـ أصلحتُها...
فالخراب لا يُهزم بالسيف، بل بالقلم.

ـ نظرتُ في بيت المال،
فرأيت أيديًا لا تُحسن العدّ إلا إذا اختلست،
فأزلتُها،
وأقسمتُ أن يكون الدرهم في الدولة كدم المسلم... لا يُؤخذ إلا بحق.

ثم أردف قائلا:
ـ جعلتُ على الجباية رجالًا لا يُعرفون بالثراء،
بل بالبكاء في الليل،
ومن ظلم الناس... ألبسته خزيه.

ـ كنتُ أقول لوالي كل مدينة:
"اجمع زكاتهم،
لكن لا تلمس قلبًا قبل أن تسأله: هل أعطيتَ عن طيب نفس؟"

قلت:
ـ وهل استطعت أن تُصلحهم جميعًا؟
قال:
ـ لا...
ولكنني كنتُ أُبعد الفاسد،
لا لأُظهر نفسي عادلاً، بل حتى لا يلعنني الناس إذا رحلت.

ـ عزلتُ أمراءً كانوا يصلّون،
لكنهم لا يعدلون.

ـ وقرّبتُ رجالًا لم يكونوا أصحاب نسب،
لكنهم إذا خافوا الله... خافهم كلّ مَن في السوق.

قلت له:
ـ وكيف كنت تختبرهم؟
فقال:
ـ كنتُ أنظر في أبنائهم.
فمن كان ولده يتكبّر على الناس... علمت أن في البيت خللاً.

ـ وكنتُ أنظر في جاره،
فمن شكا من ظله... لم أثق بعدله.

ثم قال لي وهو يبتسم بحزنٍ يعرفه من عاش في الحكم طويلًا:
ـ يا هذا...
ليس كل مَن بكى أمامك تقيّ،
فبعضهم...
يتعلّم الدموع ليبقى في منصبه.

كان يمكن له أن يفرح...
فالملك بين يديه،
والناس تذكره في كل محفل،
لكنّه كان يهرب من المديح كما يهرب التقيّ من الرياء.

سألته:
ـ أما ارتحت بعد كل هذا؟
فتنهّد،
ثم أردف قائلاً:

ـ الراحة لا تكون في الوسادة... بل في الضمير.
ـ وأنا كنتُ أنام قليلًا...
ليس لأنني مشغول،
بل لأني أخاف أن أغفل عن نفسي وهي تضع التاج على رأسها.

رفع نظره كمن يسترجع ذاكرةً باهتة:
ـ كنتُ أترك فراشي كل ليلة،
وأمشي في أروقة القصر...
أعدّ عدد السجادات، لا عدد الحراس.

ـ فإذا وجدتهن فارغات، علمت أن الخطر ليس على البوابة،
بل في القلوب.

ثم أضاف بنبرة من يعرف الطريق:
ـ كنتُ أتهجّد كما كنت أفعل وأنا جندي،
فالسجدة التي أنقذتني في المعركة،
هي نفسها التي علّمتني كيف لا أضيع بعدها.

سألته:
ـ ومتى تدمع عيناك؟
أجابني دون أن يلتفت:
ـ حين أقرأ: " أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ"

ـ فأتذكّر أن كل ما أملكه... لن يمنع الموت،
ولا يشفع لي إن نسيتُ من أنا أمام الله.

ثم أشار بيده كمن يُبعد شيئًا:
ـ يا هذا،
الناس يظنون أن السجدة وقت الفقر فقط،
ولكنها امتحانٌ أشد حين تغنى.

ـ السجود في القصر... أصعب من السجود في الخيمة.

وسكت لحظةً طويلة...
ثم همس كأنه يحدّث قلبه:
ـ إذا رأيتَ رجلاً بكامل سلطانه... ويبكي في صلاته،
فاعلم أن الله قد أحبّه.

هكذا قال، ثم سكت قليلاً...
كأنّه يسمع شيئًا لا أسمعه.

ثم أردف بصوتٍ يشبه الهمس:
ـ لكني... كلّما بكيت، تذكّرت أن دمعتي وحدها لا تفتح الأقصى.

ـ كنتُ أقف بين يدي الله...
وأشعر أن بيتًا من بيوت الله،
ليس تحت سمائنا، بل تحت سيوفهم.

ـ فلا يطيب لي خشوع...
ولا يكتمل لي سجود،
ما دام أولى القبلتين... تحت أقدام الذين لا يؤمنون بها.

ثم نظر إليّ نظرةً لم أرَ فيها حزنًا،
بل شيئًا أعمق...
كأن رجلاً يُصلي منذ سنوات، لكنه فقد جهة القبلة.

وقال:
ـ واللهِ ما كانت تكفيني القصور،
ولا كانت تشبعني البلاد،
وأنا أعلم أن القدس تُؤذَّن فيها... ولكن لا يُسمع الأذان.

ـ سمعتُ عن مجزرتهم فيها،
وكيف ذبحوا سبعين ألفًا في المسجد الأقصى،
حتى غاصت الخيول في الدماء إلى الركب.

ـ وكلما مرّ هذا المشهد بخيالي،
قلت في نفسي:
أيّ صلاةٍ تُرفع منّا... والدم لا يزال على المحراب؟

...ثم سكت
كأنّه خاف أن يسمعه الله ساكتًا.

وقال:
ـ كنتُ أعلم أني سأُسأل عنها،
فإن لم أُجب بالسيف...
فبماذا أجيب؟ بالسيرة الحسنة؟ أم بعدد ولاياتي؟

ثم التفت إليّ فجأة كمن استيقظ من صبرٍ طويل،
وقال:
ـ مضى وقت الكلام...
القدس لا تعود بصوتٍ ناعم،
القدس لا تستردّها الدموع... بل تُستحقّها.

كان صوته خارجًا من زمنه،
لكن صدى كلماته اصطدم بعينيّ،
كأنّه لا يحدّث نفسه... بل يصف زماني.

فكّرتُ في غزة...
في المآذن التي هُدمت على رؤوس المصلّين،
في الأطفال الذين يحضّرون أكفانهم قبل أن يحفظوا جدول الضرب،
في الأرامل اللواتي يسألن عن السماء قبل أن يسألن عن الخبز.

ورأيته... لا يزال واقفًا.
ليس في ساحة المعركة،
بل في ساحة العار الممتدّ من البحر إلى البحر.

سألته دون أن أتكلم:
ـ أتراهم سيأتونك من جديد؟

فنظر إلى البعيد،
ثم قال دون أن يلتفت:
ـ لن يُعيدني الحنين،
سيُعيدني من يشتاق للقدس أكثر من بيته،
ومن لا يُشبع قلبه إلا النصر،
ولا يرضى بالخبز إذا كانت المساجد جائعة.

وغزة؟
سألني أنا هذه المرّة...

ـ قل لي...
هل بقي من يصحو لصوتها في الليل؟
هل بقي مَن يرى في قصفها نداءً، لا نشرة أخبار؟

ـ إن بقي، فقل له:
أنا هنا...
لكن لا أعود وحدي.

سألني صلاح الدين،
وكان صوته حادًّا كأنّه نصلٌ خرج للتو من غمده:

ـ ما بالكم...؟
غُلبتم في الحرب، فلماذا تُهزمون في الكرامة؟

ثم مشى خطواتٍ قليلة،
كأنّه لا يحتمل البقاء في مكانٍ لا يُستجاب فيه لنداء الدم.
وقال بصوتٍ لا يشبه التوبيخ،
بل يشبه الحزن:

ـ أتعرف ما يؤلمني؟
أن تُقصف المساجد فلا تتحرك الجيوش...
لكن تُقصف الأسواق... فترتفع الأسعار.

ـ أيُّ زمنٍ هذا؟
العدو على أسوار غزة،
والأبواب مغلقة من الداخل،
والحصار لا تصنعه الدبابات فقط،
بل التواقيع والبيانات والتحالفات والمجالس.

أشار بيده شرقًا،
وقال:
ـ تلك حدودنا...
لكن السلك الشائك لم يعد هو المشكلة،
المشكلة أنّ بعض الحكام...
أصبحوا سياجًا من الداخل.

تنهّد، ثم تابع:
ـ لو رأى خالد بن الوليد ما رأيتُ،
لما أغمد سيفه إلا في صدر الخيانة.

ـ ولو مرّ عمر بن الخطاب على غزة،
لما فتح بيت المقدس حتى يُفتح لها أولًا.

قلت له، وأنا أهرب من عينيه:
ـ الشعوب ما زالت تصرخ،
تهتف، تمشي، تُطارد، تُعتقل.

فقال:
ـ نعم...
وهم وحدهم الذين يشبهون جيشي.
لكنهم اليوم...
يُرمَون لا بالنبال، بل بالعصيّ وقنابل الغاز،
لا على يد الصهاينة، بل على يدِ إخوان اللسان والراية.

ثم توقف،
ونظر نحوي طويلًا،
وقال بكلمة واحدة كانت أثقل من كل ما قبلها:

ـ *جبنٌ...*
أن تبكي غزة، ولا تُفتح لها طريق.
أن نعرف مكان العدو، ولا نعرف مكان أنفسنا.

وسكت...
فقد قيل كل شيء،
ولا شيء بعد غزة يُقال دون أن يُحاسب عليه الدم.

بعد أن صمت طويلاً،
نظر إليّ وكأنّه خرج من صلاةٍ لا صلاة بعدها،
ثم قال:

ـ كفى.

قالها بهدوء،
لكنّي شعرت أنّ السماء اهتزّت حين نطق بها.

ـ كفى صمتًا،
كفى انتظارًا،
كفى حديثًا عن الأقصى كما لو أنه قصيدة...
والقصائد لا تُحرّر شيئًا.

ثم مشى خطوة،
وقال:
ـ لقد مرّ الزمان علينا...
وصرنا نكتب عن القدس أكثر مما نسير إليها،
ونبكي على غزة أكثر مما نكسر الحصار عنها.

ـ أما آن للدموع أن تتوضأ... وتُصلي ركعتي العمل؟

ـ إنني لا أبحث عن جيش،
أنا أبحث عن رجل،
واحد فقط،
إذا سمع عن ظلمٍ... لم يقل: "ما دخلي؟"
بل قال: "*لن أُسكت دمي*"

ثم أردف:
ـ لا أريد جيوشًا تلبس البزّة،
بل رجالًا... يعرفون أن الغاية ليست النصر، بل الشهادة.

ـ النصر لا يُطلب على الورق،
بل يُكتب على التراب،
بأقدامٍ لا ترتجف... وسواعد لا تتكئ على أحد.

قلت:
ـ وهل ستبدأ وحدك؟
فأجابني بصوتٍ أهدأ من نسيم الفجر، لكنه أشد منه وقعًا:

ـ بدأته منذ رأيتُ طفلاً يُحمل على كتف أمّه إلى المقبرة،
ولا يُحمل بعدها في نشرة الأخبار.

ـ الجهاد لا يبدأ بإشارة...
بل بندبةٍ في القلب،
كلما لمستها... قلت: "آن أوانها."

بدأ يتحرك...
لا بالسيف، بل بالحكمة.

كأنّ صبره بلغ حدّه،
لكنّه لم ينفجر... بل توضّأ.

ـ هيّأ الجيش...
ولكن قبل ذلك، هيّأ القلوب.

لم يقل للناس: "نُريد فتح القدس"
بل قال: "نُريد أن نستحقها."

نادى العلماء،
وبثّ فيهم الحزن النبيل،
لا النحيب العاجز.

وقال لهم:
ـ "خطب الجمعة لا تفتح مدينة،
لكنها إن أوقظت القلوب... تبني جيشًا."

وفي المدارس،
أعاد تدريس السيرة،
فصار الأطفال يحفظون أسماء الفاتحين،
ويعلّقون خرائط الأندلس فوق أسرّتهم.

قال:
ـ "الطفل الذي لا يحلم بالفتح...
سيكبر ليحرس من يحتلّه."

وفي المعسكرات،
كان يمرّ على الجنود ليلاً،
فإذا سمع صوت ضحكٍ عالٍ، سأل:
ـ "هل صليتم قيام الليل؟"

وإذا سمع القرآن، وقفَ عند الباب،
ثم قال:
ـ "هؤلاء أقرب للنصر...
من الذين يرفعون أصواتهم في ساحة التدريب."

جهّز الجيش كما لو أنه سيحارب في غزة...
حمل همّها، وكأنها أمامه،
وكأن قبابها تُقصف،
وكأن خيامها تحترق،
وكأن جثث أطفالها تملأ الطريق بين عسقلان وحيفا.

ولم يكن وحده...

أرسَل إلى أمراء الأطراف،
وقال لهم:
ـ "لا نريد رجالًا يُحسنون رمي السهام فقط،
بل من يُحسنون كتم غضبهم، وستر نواياهم،
فالعدو لا يخاف الصراخ،
بل يخاف التنظيم."

ثم خصّص أوقاتًا للجهاد،
وقال:
ـ "المعركة لا تُخاض بالسيوف وحدها،
بل بالخبز، والدواء، وخيمة تقي الأرملة من الريح."

وحين كثر عليه السؤال:
ـ "متى ستبدأ الحرب؟"
أجابهم بهدوء رجلٍ يعرف أن المعركة الكبرى ليست في الميدان:

ـ "حين نصبح أُمّة... تبدأ الحرب."

أقبل الصيف...
لكنّ البلاد لم تكن حارّة كالعادة،
كانت **مشتعلة**.

ليس من الشمس،
بل من العزم الذي ملأ القلوب كأنّه آية.

كان الرجل يسير في الصفوف،
وما من أحدٍ ينظر إلى سلاحه،
الكلّ كان ينظر إلى عينيه...

فيهما شيء لا يُشترى،
ولا يُورَّث،
ولا يُزيف.

أمر بجمع القِرَب،
وأحصى عدد الخيول،
وأرسل العيون إلى كل ممرّ، وكل قلعة، وكل غفلةٍ في العدو.

لكنه حين دخل خيمته...
لم يُمسك خريطة،
بل فرشَ سجادته،
وقال:
ـ "إن أبطأ النصر،
فلعلّ فينا ذنبًا يجب أن يُستغفر."

أرسل الرُسل إلى القبائل:
ـ "من كان منكم له سيف... فليحضره.
ومن كان له دعاءٌ في جوف الليل... فليُخلص فيه."

ـ "فنحن نقاتل لا لننتقم،
بل لنعيد للسماء صورتها في الأرض."

جمع قادة الجيش،
ولم يحدثهم عن عدد الصليبيين،
ولا عن خطط الدفاع ولا طرق الهجوم.

بل قال:
ـ "احذروا من ذنوبكم أكثر من سهامهم،
فإن الله لا يُسلم مدينةً لمن لم يُسلِّم قلبه."

ثم نظر إلى أبعد نقطة في الأفق،
وقال:
ـ "هناك، بين طبريا والناصرة،
سينكسر غرورهم."

ـ "وسيشربون من قِرَبهم...
لكنّها لن تُطفئ النار التي أشعلوها في بيت المقدس."

نام تلك الليلة قليلاً،
ثم استيقظ قبل الفجر،
ومشى وحده على الرمال،

يراجع في قلبه كل من سيُقاتل،
ويُسلّم أمره إلى من بيده النصر.

قال وهو يطأ الأرض بخفة راكع:
ـ "اللهم إنهم استضعفونا،
وظنّوا أن لا بأس على من احتلّنا...
فاجعل هذا اليوم آية."

لم يكن صباحًا عاديًا.
كان يشبه قيام الليل...
هادئًا من الخارج،
ولكنّ السماء فيه تُوشك أن تُنزل أمرها.

حرّك صلاح الدين جنده،
لكن قلبه كان في جهةٍ أخرى،
كأنّه يسمع من بعيد بكاء القِباب...
وليس قعقعة السلاح.

أمر بقطع الماء عن الصليبيين،
فهم في حرّ تمّوز،
وهو في شتاءٍ من الحكمة الباردة.

ثم قال:
ـ "دعهم يمشون إلينا كما تُقاد الذبيحة،
فالعطش أصدقُ من الرماح."

احتشد الجيش عند "عين جالوت"،
وكانت الأرض معهم،
والسماء تراقب،
والعدو يُراهن على صليبٍ لا يروي ظمأً،
ولا يُنقذ من نيرانٍ أُضرمت من الداخل.

ثم قال، وهو يقرأ بعينيه كل اتجاه:
ـ "اليوم... لا نضرب الأجساد،
بل نكسر الغرور."

ـ "ومن كُسر غروره في حطين...
لن يدخل القدس بعدها إلّا بجواز سفر من الله."

بدأ القتال...
لكن صوت السيوف لم يكن الأعلى،
بل صوت الدعاء،
وصوت يقينٍ يُحسن الظنّ بالله.

الصليبيون تعبوا...
بحثوا عن ماء فلم يجدوا،
ركضوا نحو طبريا فلم يُمهَلوا،
تراجعوا... فلم يجدوا ظلًّا،
وتقدّموا... فوجدوا جيشًا لم يأتِ من الصحراء، بل من السجود.

وقبل الغروب...
نظر صلاح الدين إلى الراية التي سقطت من يد "غي دي لوزينيان"،

وقال:
ـ "سقطت...
ولكن لم تسقط من السماء،
بل من قلوبهم قبلها."

ثم أشار إلى أسرى الملوك،
وقال لجنده:
ـ "لا تفرحوا...
فقد تكون هذه المعركة صفحة،
لكنَّ القدس... هي العنوان."

حين انتهت المعركة،
كان يمكنه أن يرفع السيف عاليًا...
لكنّه رفع البصر إلى السماء،
وقال:
ـ "اللهم لا تجعل هذا النصر فتنة."

أُتيَ بأسرى الصليبيين...
وكان بينهم من أمر بقتل النساء،
ومن بارك حرق المساجد،
ومن مشى يومًا على سجاد الأقصى بقدميه.

وقف أمامهم لا ليُذلّهم،
بل ليُريهم ما لم يعرفوه عن هذا الدين:
أن المنتصر لا يبطش،
بل يغفر حين يستطيع أن يبطش.

جاءه رجل، وقال:
ـ "اقتُلهم كما فعلوا بنا."
فأجابه دون أن يلتفت إليه:

ـ "نحن لسنا مثلهم،
هم ذبحوا على مذبح الكراهية،
ونحن لا نُريق قطرة دم إلا على محراب العدل."

ثم نظر إلى "أرناط" أمير الكرك،
الذي كان قد قتل الحجيج وسخر من النبي ﷺ،
وقال له:
ـ "أنا لا أقتل مَن يسبّني،
ولكن من يمسّ حرمة النبي...
لا يبقى له مكان على الأرض."

وأهوى بسيفه فقط على رقبته.

قال لجنده:
ـ "أطلقوا من أسلم منهم،
ولا تُهينوا من أُسر،
فالكرامة لا تُجزّأ...
ولا تليق بالأقصى إلا إذا دخلناها مطمئنين."

اقتربت الخطى،
وصار الأقصى يرى سيوفًا لا تُشهر عليه،
بل ترفعه،
وسمع الله دعاءً لم يُقل من ألف عام،
قاله رجلٌ كان يعرف أنَّ النصر لا يأتي من الغبار،
بل من السجود.

دخل صلاح الدين إلى القدس...
لا كفاتحٍ،
بل كعبدٍ يعود إلى المسجد بعد طول غياب.

لم يركض،
لم يرفع سيفًا،
لم يعلّق الرايات فوق القِباب،
بل خلع نعليه عند الباب...
وبكى كما يبكي من فاته الفجر في عمره كلّه.

لم يقل شيئًا،
لكنَّ صمته صار من يومها نشيدًا يُتلى في المدارس.

قال بعضهم:
ـ "هل هذا هو القائد الذي هزم ملوك أوروبا؟"
فقال آخر:
ـ "بل هذا هو الرجل الذي لم تهزمه الدنيا."

ثم صعد المنبر،
الذي وقف عليه يوماً عمر بن الخطاب،
وقال:
ـ "إن هذا المسجد أمانة...
فلا تُسلموها بعدي مرةً أخرى إلّا بدموع،
أو دماء... أو دعاء لا يُرد."

ثم صمت،
وأنزل رأسه،
وقال:
ـ "رجعت القدس...
فهل ترجع القلوب؟"

رجعتُ من القدس،
لكني ما زلتُ أسمع صوتها في غزة.

لا يشبه الأذان،
بل يُشبه النواح الخافت بين الركام...
والتكبير الخجول في جنازات الأطفال.

سألت نفسي:
هل يُعيد الله التاريخ؟
هل يبعث في هذه الأمة من يُصلي كما صلّى صلاح الدين،

ويبكي كما بكى،
ويغضب كما غضب...؟

ثم نظرت نحو غزة،
ورأيت أن بعض النصر لا يحتاج إلى جيش،
بل إلى ضميرٍ حيّ يصرخ في وجه الخوف.

هناك،
في الزوايا المحطّمة،
أطفالٌ يرسمون الأقصى فوق الحيطان،
وينامون جائعين... لكنهم لا ينسون القِبلة.

قال صلاح الدين يومًا:

"إذا رأيت الرجل بكامل سلطانه... ويبكي في صلاته، فاعلم أن الله قد أحبّه."

وأنا رأيت في غزة رجلاً لا يملك شيئًا،
لكنّه يبكي في صلاته،
ويحمل طفله على كتفه إلى الشهادة...
ولا يسأل لماذا وحده يُجاهد.

يا من تسمعني...
لسنا بحاجة إلى ألف صلاح الدين،
نحن بحاجة إلى رجلٍ واحدٍ فقط:
يخاف الله أكثر مما يخاف العدو،
ويحمل في قلبه قبة الصخرة لا علم السفارات.

غزة لا تريد شفقة،
غزة تريد طريقًا يُفتح،
وصوتًا لا يخاف أن يُقال عنه خارج الصفّ،
وغرفةً في القصر تَخجل أن تنام فيها... وهي تعرف أن خيمةً تحترق هناك.

قل لصلاح الدين إن غزة لم تُفتح بعد،
لكنّ أهلها ما زالوا صامدين،
يُصلّون في الأنقاض،
ويُربّون أبناءهم على اسم *حطين* أكثر من اسم *الهزيمة*.

وقل لهم جميعًا:
الدم ما زال يكتب،
لكنّه ينتظر أن يُقابل دمًا يشبهه...
في الهمّة، لا في الجغرافيا.

كان مريضًا.
جسده ينحلّ... لكنّ روحه تزداد ثِقلاً،
كأنّ القدس تُقيم فيه... لا في المدينة.

اقترب منه أحدهم، وقال له همسًا:
ـ أراك ترحل...

فأجابه وهو يبتسم:
ـ بل أذهب إلى الذي لا تغيب عنه المظالم.

سألوه:
ـ بماذا نرثيك؟
فقال:
ـ لا تقولوا شيئًا،
يكفيني أن تبقوا على القبلة واقفين،
وأن لا تُسلّموا الأقصى مرةً أخرى... إلّا على أجسادكم.

ومات...
وماتت معه الأرض التي ترتجف من خطاه،
لكنه ترك خلفه سيفًا لم يُكسر،
ودمعةً على المحراب لم تجف.

فتّشوا بيته بعد وفاته،
فما وجدوا إلا مصحفًا، وثوبًا، وسيفًا،
وملأوا بيت المال بأوراقٍ كتب عليها:

"هذا من مال المسلمين... لا آخذه."

وظنّ الناس أن القصة انتهت،
لكنّها لم تنتهِ...
بل أصبحت **دعاءً يتردّد في كل ركعةٍ يُهمس فيها: "اللهم أعد لنا صلاح الدين."**

والأقصى؟
ما زال يذكر رجلاً مشى إليه دون ضجيج،
ودخل على بابه خاشعًا،
وبكى لا لأنه رآه... بل لأنه تأخر عليه كثيرًا.

وغزة؟
ما زالت تذكره...
لا لأنه قاتل، بل لأنه لم يساوم،
ولأنه علّمنا أن السجود الذي لا يُغيّر الواقع... ليس سجودًا، بل انحناءً.

سيعود؟
ربما لا هو،
لكنّ من يُشبهه سيعود،
بركعةٍ لا رياء فيها،
وبرصاصةٍ لا تهتزّ يدُها،
وبقلبٍ يرى في كل طفلٍ من غزة... بداية الحكاية من جديد.

فإذا سمعتم الأقصى يومًا يُكبّر،
وسمعتم غزة تُهلّل،
فاعلموا أن الراحل قد عاد...

لا بشخصه،
بل بأُمّةٍ... قررت ألا تموت.